



✽
محسن يوسف

« شر البلية ما يضحك »

« في أيامنا يا بني، كانت الأرض أكبر وأكثر اتساعاً، والنساء أوفر جمالاً، وأحلامنا بسيطة وممكنة، لكنها دافئة .
لم يكن هناك أبنية تتزاحم وكأنها تتصارع، ولم نعرف كتل الحديد التي تملأ الأديم والفضاء، ولم نتواصل مع أحبائنا بالأسلاك وما يسمى الهاتف الخليوي، وحكامنا كانوا يمتطون الخيول والحمير، باختصار أيامنا تختلف عن أيامكم كلياً» ..

✽ قاص سوري.

✽ العمل الفني: الفنان شادي العيسى.



- كنت أفكر باصطحاب قنديلي
القديم.
ظل رأسه يهتزّ، ويداه تبحثان عن شيء،
في سرج دابته، وما لبث أن هتف فرحاً:
- ها هو. نسيت أنني وضعته في السرج.
رفع القنديل بكلتا يديه:
- رافقني هذا الصديق، في جميع
رحلاتي.
أشعل القنديل مبهتجاً:
- مصابيحكم لا تروق لي. انظر إليه.
إنه يدعوك. أليس جميلاً..
ساحراً؟..
رحت أتأمل القنديل وصاحبه، وعيون

غادرنا (قونية) على حمارين، وعبرنا
(اسكندرون)، واغتسلنا بمياه نهر العاصي
في (أنطاكية)^(١)، وتابعنا رحلتنا، على مقربة
من شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وقضينا
إحدى الليالي، إلى جوار ضريح ابن هاني، في
مكان يحمل اسم (الشاطئ الأزرق)^(٢).
سأل، وعيناه تطيران في كل اتجاه:
- من أين جاؤوا بكل هذه القناديل؟..
بين قونية والشيخ ابن هاني، رأيت آلافاً
منها. ضحكت وقلت
- هذه ليست قناديل يا سيدي. إنها
مصابيح كهربائية، تضيئها عندما تشاء .
هز رأسه وقال:

(القنديل)

- لا.. لا.. بني. شر البلية ما يضحك.
فعلت ما يلزم، في أزمنا كمت فيها الأفواه،
واعتقلت الأفكار، واستبدلت القيم، بتبجيل
الأشخاص والأصنام.

هتفت وأنا أدنو منه وأقبله:

- أنت فيلسوف.. يا سيدي.

قصدنا بغداد، فمنعنا من دخولها،
وتوقّف الحماران، ورمصاص الحراس
والعسس، يخترق أسوار القدس، وحاولنا
الوصول إلى غزّة هاشم، من شرقها وغربها.
من الصحراء والبحر، دون جدوى، فبكى
الرجل وبكى. بكينا معاً، بعد أن أدركنا:
إننا غريبان في عالم مجنون..

وقفت وحيداً، وبعيداً عن الرجال
والنساء، وقد أحاطوا بضريح جحا، في مكان
يزوره كثيرون، من مدينة احتضنت رفاقه،
اسمها (قونية)، وكنت ما أزال أمسح عبراتي
المتساقطة، وأتخيّل الرجل الذي أحب، يفعل
مثلي، وحولنا تتعالى الضحكات الصاخبة..

الحمارين تتجه نحو الضوء المتراقص، وكنا
ما نزال على تخوم (الشاطئ الأزرق)، في
ركن بعيد عن حبال المصايح الكهربائية..
كنت وما أزال أحب هذا الرجل الفريد،
وبناءً على هذا الحب، رحلت أبحث عنه،
وعندما التقينا، فاجأني برغبته زيارة أماكن
ومدن، تعاني وتنام، من الجوع والحصار
والموت.

سألته:

- كيف عرفت ما حدث لهذه الريع؟..

تنهد بعمق:

- هناك دائماً تثار ومغول. نازيون
وفرنجية. صهاينة وبوشيون. حتى المقابر
والأضرحة تعرف وتشكو، وتعاقر الآلام، لما
يحدث من مجازر وفجائع.

صمت يلتقط أنفاسه. قلت

- عرفك الزمن، مهرجاً مهذاراً، تضحك

الناس، ولم يعرفك

مناضلاً ثورياً..

قاطعني مهتاجاً:

الهوامش:

١- مدن تركية.

٢- موقع سياحي في مدينة اللاذقية السورية.